مقدمة المترجم

منذ بدايات شغفي بالتاريخ ومصادره، في أواخر مرحلتي الابتدائية، وروما وعظمتها تمثلانِ لي عاملَ جذبٍ كبيرٍ في هذا السِّياق التاريخيِّ الكبير. لم تكن لديَّ تلك النظرة الانتقائية للتاريخ التي تنطلق من مُسلَّماتٍ وأيدلوجياتٍ معينة. تلك النظرة التي تتجاهل البُعد العالمي في حركة التاريخ. بل التاريخ – هكذا كنتُ أومن وما زلتُ – هو سلسلةٌ متواصلةٌ من الأحداث الإنسانية على امتداد خط الزمن الذي يبدأ منذ خلق آدم – عليه السلام – وينتهي بنهاية هذا العالم. هذه السلسلة التاريخية اشترك في تكوينها جميع شعوب الأرض، وفي جميع الأزمان، بغضِّ النظر عن اللون والدين والجنس. نعم توجد لدينا، بوصفنا مؤرخين أكاديميين، نظرةٌ غير منصفة، وهي التي تربط بداية التاريخ ببداية التدوين في مطلع الألفية الثالثة قبل الميلاد، حيث إنَّ التاريخَ أقدم وأعم من التدوين التاريخي بكثير. لكن قد نُعذر بوصفنا مؤرخين أكاديميين، كون بداية التدوين تعني بداية إمكانية كتابة التاريخ، ومن ثم دراسته أو فلنقُل "التعامل مع المادة التاريخية". لكن التاريخ كحركةٍ إنسانيةٍ قديمٌ قِدم الإنسان نفسه.

إن عظمة روما وشهرتها أكبر من أن يتم تجاهلها تحت أي ذريعة كانت، فالقرآن الكريم خلَّد ذكر الرومان حين قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ (سورة الروم: الآية ١ – ٣). وكذلك الكتب السماوية الأخرى تناولت الرومان وتاريخهم. والمصادر القديمة شرقيها وغربيها

ذكرت روما وشعبها على مرِّ العصور. ولروما وللرومان حيِّزٌ كبيرٌ في عقلنا الجمعي نحن المسلمين، بل لا أبالغ إذا قلتُ إنهما لعبا دوراً كبيراً في تشكيل وعينا الثقافي وهويتنا الإسلامية، حيث واجه أجدادنا من الصحابة– رضوان الله عليهم – روما وعظمتها، ونجحوا، وبإبداعٍ، في تجاوز حدود المنطق التاريخي بانتصارهم العسكري على القوة الرومانية التي كانت "لا تُقهر".

واليوم نجد الإمبراطورية الرومانية يتم تناولها من قبل المؤرخين والساسة الغربيين للكثير من الأسباب التي يستحيل عرضها في هذه المقدمة.• ولكن ما يهمنا هو حضور هذه الإمبراطورية في عالمنا الحديث والمعاصر.

ولقد زاد شغفي بالتاريخ الروماني مع تنامي حصيلتي التاريخية حتى قادني هذا الشغف إلى تعلُّم اللغة اللاتينية، ومكابدة صعوبتها المعروفة. ومن ثم إلى تناول روما وعلاقتها بالشرق الأدنى القديم، وكذلك النظر إلى هذه العلاقة القديمة من قبل المؤرخين الغربيين المحدثين في رسالتي للدكتوراه، التي قدمتها إلى جامعة مانشستر، في ديسمبر من العام ٢٠٠٥م، وكانت بعنوان:

Rome and Nabataea: Post-Colonialism and the Writing of History

وفي صيف عام ٢٠١١م، أرشدني زميلي السابق في مرحلة الماجستير السيد مايكل تيت إلى كتاب جديد عن تجارة روما مع الشرق البعيد بعنوان:

Rome and the Distant East: Trade Routes to the Ancient Lands of Arabia, India and China

صادر عن دار كونتنيوم Continuum للنشر.

• تناول المترجم شرح هذه الأسباب في بحثه الموسوم: سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، الأسباب غير المباشرة، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ٢٠٠٧م.

obeikandl.com

روما والشرق البعيد طرق التجارة القديمة إلى أراضي الجزيرة العربية والهند والصين

ولقد اقتنيتُ هذا الكتاب وقمتُ بقراءتِه في سنةٍ واحدةٍ أكثر من خمس مرات. والعجيب أنني في كل مرة أقرأُ فيها هذا الكتاب أكتشفُ فيه أمراً جديداً. من هنا قررت ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ليكون مرجعاً للمتخصصين في تاريخ روما القديم، أو تاريخ الجزيرة العربية القديم، أو حتى تاريخ الشرق البعيد، حيث تعاني المكتبة العربية نقصاً كبيراً في مثل هذه المؤلفات التي تُعنَى بالتاريخ القديم، ولا سيما تاريخ التجارة القديمة، خصوصاً في تلك الكتب التي تم تأليفها من قبل علماء غربيين قد ينظرون إلى الموضوع من زاويةٍ غير غربية.

يتناول هذا الكتاب أحد أهم الموضوعات في التاريخ القديم، وهو موضوع التجارة العالمية، التجارة بين الغرب ممثلاً بواجهة الغرب آنذاك الحضارية والعسكرية والاقتصادية، وأعني روما، وبين الشرق ممثلاً بمركز ثقله الاقتصادي الجزيرة العربية، وكذلك بقية مناطق الشرق، وهو ما أطلقَ عليه مؤلف الكتاب "الشرق البعيد". كان العامل الاقتصادي من أهم العوامل التي قادت إلى ازدهار روما وتَسيُّدِها العالم القديم، وكان العامل نفسه الذي لعب دوراً كبيراً في انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية، كما عرضت لذلك في دراسة أكاديمية سابقة بعنوان: "سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية: الأسباب غير المباشرة".

ومن مميزات هذا الكتاب عدم تسليمه بالمُسلَّمات الرائجة في الأوساط الأكاديمية الغربية والمتعلقة بروما. ومن هذه المسلمات إقصاء دور التجارة الشرقية من عملية تقييم التجربة الرومانية، أو النظر إلى الاتصالات الرومانية الشرقية على أنها ذات اتجاهٍ واحدٍ من ناحية التأثير. فدائماً ما يُنظر في الدراسات التقليدية إلى روما على أنها المركز، بينما يُطلق على بقية الشعوب الأخرى مسمى الأطراف. وهو ما يُطلق عليه في

الدراسات الغربية "the center-prephaies relations". ومع أن هذه النظرة مقبولة من ناحية العلاقات العسكرية، وما تنطوي عليه من منطق القوة، إلا أنها في الجانب الثقافي والاقتصادي غير منصفة، فلقد أثَّرت الشعوب الشرقية عن طريق منتجاتها الاقتصادية كثيراً في روما، كما أثَّرت هذه الأخيرة في الشعوب الشرقية. ومن هنا فإنَّ هذا الكتاب لم يتجاهل هذا التأثير الشرقي. يقول مؤلف الكتاب: "من خلال دراسة التدخل الروماني في تجارة الشرق، يتناول هذا الكتاب الإمبراطورية الرومانية ويضعها، بدقةٍ أكثر، ضمنَ سياقها القديم الحقيقي. وينتقدُ هذا الكتابُ الصورةَ التقليديةَ التي قدَّم بها الباحثون الغربيون روما وإنجازاتها. وتجدر الإشارة إلى أنه لا تزال هناك العديد من المسلَّمات في الأوساط الأكاديمية تتعلَّق بتقييم الإمبراطورية الرومانية إلى حدٍّ كبيرٍ على أساس نفوذها السياسي والعسكري، مما يحصر الدراسات ضمن حدود أكاديمية ضيقة. إنَّ هذه المسلمات بحاجة إلى التصدي والنقد، ويمكن تحقيق ذلك من خلال دراسة الأدلة القديمة المتعلقة بكيفية قيام التجارة بربط وتمويل العالم القديم."إن مؤلف الكتاب بمثل هذه النظرة الأكاديمية المتحررة من سيطرة مسلَّمات الفوقية الغربية، يوظِّف، وإنْ كان دون وعي، مفاهيم نظرية ما بعد الاستعمار Post-Colonialism. إن نظرية ما بعد الاستعمار فتحت وما زالت تفتح الكثير من الآفاق في دراسة التاريخ العالمي. والحقيقة أنَّ هذه النظرية على الرغم من رواجها في الغرب، لم تُطبق على التاريخ القديم في الشرق، قبل أن أحضِّر فيها رسالتي للدكتوراه في جامعة مانشستر العريقة تحت عنوان: Rome and Nabataea: Post-Colonialism and the Writing of History (روما والأنباط: نظرية ما بعد الاستعمار وكتابة التاريخ). التي قامت دار النشر BAR بطلب نشرها مني فوافقت وقد تم ذلك في العام ٢٠١١م.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن المؤلف قد استخدم مصطلحين جغرافيين مختلفين. وهما the Distant East (الشرق البعيد) ويقصد به "المناطق الواقعة وراء حدود الأراضي الرومانية. وتشمل: المملكة البارثية، وجنوب شبه الجزيرة العربية، وشرق أفريقيا، والهند، وآسيا الداخلية، والشرق الأقصى، والصين." ومصطلح the Far East (الشرق الأقصى) ويقصد به أراضي الشرق الأقصى المتعارف عليها. ومن هذا المنطلق فقد ترجمنا عنوان الكتاب إلى (روما والشرق البعيد: طرق التجارة القديمة إلى أراضي الجزيرة العربية والهند والصين).

وأخيراً وليس آخراً، لا يفوتني أن أشكر القائمين على مركز الترجمة في جامعة الملك سعود، على إتاحة الفرصة لي بترجمة هذا الكتاب، وإضافته للمكتبة العربية، التي تعاني نقصاً كبيراً في مثل موضوعه.

المترجم

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى والديَّ وليم جون مكلاوغلن، واليزابيث تيري مكلاوغلن

obeikandl.com

obeikandl.com

شكر وتقدير

لقد بُنيَّ هذا الكتاب على أطروحتي للدكتوراه، التي تم إنجازها في جامعة كوينز في مدينة بلفاست في العام ٢٠٠٦م. عندما كنتُ أبحث عن مكانٍ لدراسة التجارة الشرقية، تقدمتُ بطلبٍ إلى العديد من الجامعات، ولكني لم أجد أيًّا منها يمكن أن يستوعب موضوعاً واسعاً وطموحاً كهذا. وكان المكان الوحيد الذي بإمكانه استيعاب هذا العمل هو مدينة بلفاست. وفي حقيقة الأمر فأنا أقدِّرُ كثيراً كيف سمح لي متابعة اهتماماتي الأكاديمية في إطار من التوجيه والتشجيع البناء. وأودُ أن أشكر المشرف على رسالة الدكتوراه الدكتور چون كوران، لأنه لولا توجيهاته وإرشاداته ودعمه لما أتيحت لي هذه الفرصة لدراسة هذا الموضوع. وأود أيضاً أن أشكر الأستاذ الدكتور برايان كامبل وكولين آدامز لموافقتهما على أن يكونا الممتحنين لي في درجة الدكتوراه حيث استفدت كثيراً من نصائحهما.

لقد تلقيتُ تعليمي في كلية ليجان في بلفاست، وهي أول كلية متكاملة وشاملة لمختلف شرائح المجتمع تُنشأ في أيرلندا الشمالية. وقد تأسست هذه الكلية بهدف منح الشباب الفرصة لفهم واحترام جميع الخلفيات الثقافية والدينية دون التقسيمات القائمة على العرق، أو الطبقة الاجتماعية. ولقد أدركتُ خلال دراستي مدى مهارة هيئة التدريس في الكلية، بقيادة الدكتور براين لامبكن عميد الكلية، الذي عَزَّزَ هذه الروح بيننا، فلم يقمْ في أيِّ وقتٍ من الأوقات بتثبيط التفكير المستقل، أو تقويض الآراء

obeikandi.com

الاجتماعية، أو السياسية لكل فردٍ منا. لقد بقيت على اتصال مع زملائي طوال فترة دراستي في الجامعة. وأشكر خصيصاً جيني كيركوود لمساعدتي في ترجمات اللغة الحديثة، وماوولي أمواكو لإتاحته الفرصة لي لزيارة الصين.

لقد تم تمويل المراحل الأولى من رسالتي للدكتوراه من قبل وزارة التربية والتعليم بأيرلندا الشمالية. ولكنني موَّلت الأجزاء اللاحقة من الدراسة من مواردي الخاصة. لقد استضافت جامعة كوينز في بلفاست كُلًّا من دراستي الجامعية والدراسات العليا. وإنني أقدِّر كثيراً جامعتي وأحترم مهارات ومواقف العاملين بها، الذين لم يقوموا أبداً بتثبيط عزيمتي، أو الاستخفاف بأفكاري. ففي بلفاست كان المتخصصون في التاريخ القديم يقومون بالتدريس في القسم نفسه مع علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والمؤرخين المتخصصين في التاريخ الحديث. وفي هذه البيئة، كان التاريخ له سياق عالمي، وكانت دراسة الثقافات البعيدة زمنياً تنطوي على قيمة متميزة. لقد منحني الدكتور جون كوران، والأستاذ الدكتور ديفيد وايتهيد، الفرصة للعمل معيداً لتدريس منهج تعليمي في التاريخ الروماني الجمهوري والإغريقي القديم في الجامعة. وكانت هذه التجربة لا تُقدر بثمن. حيث تمكنت بفضل موقعي في كوينز من الوصول إلى موارد المكتبة والمواد البحثية، التي لم أكن لأتمكن من الحصول عليها لولا وجودي في هذا الموقع. وقد تمكنت تبعاً لذلك من متابعة دراستي لفترة كافية لإتمام هذا الكتاب.

كما أود أن أشكر زميليَّ المتخصصينِ في التاريخ القديم وهما كريس ماكوبري، وجوناثان إيتون، لما قدماه لي من مساعدة عملية كونهما متخصصينِ في العسكرية الرومانية، فقد كانت محادثاتنا دائماً حيةً ومثيرةً للاهتمام، وعلى وجه الخصوص جوناثان إيتون، الذي قام بقراءة المخطوطات الأولى التي كتبتها بخط يدي ووجه لي نقدا قيِّماً وبنّاءً حول مضمونها. ولا يفوتني شكر شون ماكيد، الذي كان يدرس

التاريخ الحديث، لكنه لم يتوانَ عن مؤازرتي، وكلير راش، التي كانت لديها خلفية واسعة في التاريخ الأيرلندي وقد وفرت لي العديد من الكتب النادرة، وأنا مدين لها بالعرفان. وأقدِّرُ كثيراً رؤى چيما وايبرج كونها طالبة في قسم الأنثربولوجيا الاجتماعية وتفهم بشكلٍ فريدٍ تعقيدات المجتمعات البشرية.

وأخيرا، فإنني أهدي هذا الكتاب إلى والدايّ ويليام، واليزابيث مكلاوغلن، اللذينِ اضطرا إلى قبول تحويل رسالتي للدكتوراه إلى كتابٍ، وهو ما يعني الدخول في ضائقةٍ مالية. ومن هنا فقد عمل والدي بعد سن التقاعد لمساعدتي. كما يجب أن أشكر أخي ليون على وقتِه الذي استغرقه، والعناء الذي تكبده؛ لتصميم الخرائط، وتدقيق المراجع القديمة. كما أوجه شكري لأسرتي كُلِّها، وخاصة شقيقتي تاينا، التي قدَّمتْ لي دعماً وتشجيعاً لا حدَّ لهما.

لكلِّ ما سبقَ، أشكرُ عطفَكم وتقديَركم، فلولاكم ما كان هذا الكتاب ممكناً.

راؤول مكلاوغلن

بلفاست

يونيو ٢٠٠٩ م

obeikandl.com

المحتويات

مقدمة المترجم.....هـ

الإهداء ..... ك

شكر وتقدير.....م

المحتويات.....ف

الرسومات التوضيحية ..... ق

الاختصارات ..... ظ

مقدمة: روما والشرق البعيد..... ١

الفصل الأول: الأدلة القديمة على الاتصالات الشرقية..... ١٣

الفصل الثاني: مصر الرومانية والطرق البحرية إلى الهند..... ٤٥

الفصل الثالث: روما وطرق التجارة العربية.....١٢١

الفصل الرابع: طرق التجارة عبر آسيا والاتصال بطريق الحرير.....١٦٣

الفصل الخامس: الاتصالات الدبلوماسية مع الشرق البعيد.....٢١٥

الفصل السادس: الأثر الاقتصادي على الإمبراطورية الرومانية ٢٦٩

الملاحق.....٣٤١

الملحق أ: منتجات الإمبراطورية الرومانية ٣٤١

الملحق ب: الواردات الشرقية في الإمبراطورية الرومانية.....٣٤٣

obeikandl.com

الملحق ج: أسعار السلع الشرقية ٣٤٥
الهوامش ٣٤٧
حول المصادر القديمة ٤٣٣
مراجع مختارة ٤٣٥
ثبت المصطلحات ٤٥٩
كشاف الموضوعات ٤٨١

obeikandl.com

الرسومات التوضيحية

الخرائط من صفحة (ش – ض)

١ الإمبراطوريات وأقاليم العالم القديم (القرن الأول الميلادي).

٢ المحيط الهندي (القرن الأول الميلادي).

٣ الشرق الأوسط (القرن الأول الميلادي).

٤ العالم من وجهة نظر سترابون (أوائل القرن الأول الميلادي).

٥ العالم من وجهة نظر بلني طبقاً للمعلومات الواردة في كتابه التاريخ الطبيعي (منتصف القرن الأول الميلادي).

٦ العالم من وجهة نظر كلوديوس بطليموس (منتصف القرن الثاني الميلادي).

الصور من صفحة (٢٠٩ – ٢١٣)

١ مجموعة من الرومان مجتمعون قرب سفينة تجارية لسماع الكلمة التي ألقاها الإمبراطور تراجان (الصورة مأخوذة من عمود تراجان).

٢ التفاصيل من *خريطة بوتينجر* تظهر معبد أغسطس الروماني في موزيريس في التاميل الهندية.

٣ نقش تدمري يظهر التجار الأثرياء وهم يقودون الهجن.

obeikandl.com

٤ قطعة نقدية من الذهب للملك كوشان هوفيشكا. ويظهر على الظهر الإله فارو ممسكاً بكيس نقود.

٥ نحت جاندهاري يصور وفاة بوذا في حضور شخصية إغريقية ورومانية.

٦ نحت جاندهاري يصوِّر مشهداً من حرب طروادة.

٧ نحت روماني غائر من إيطاليا يصوِّر عائلة التاجر بيتيتشيي الذين كانت لديهم مصالح التجارية في الشرق البعيد (متحف أكويلا).

٨ تمثال هندي صغير في منزل في بومبي.

٩ فسيفساء رومانية تبين كيفية اصطياد أشبال النمور (*فسيفساء الصيد*، أنطاكية): " الهند" تقدم النمر ذو السرعة الهائلة. الصياد ينتظر في كمين للاستيلاء على أشبال النمور، ومن ثم يهرب على أسرع حصان لديه ؛ لأنه بمجرد أن تجد الأنثى مخبأها فارغاً، تنهض في مطاردة الصياد – بلني الأكبر في كتابة *التاريخ الطبيعي*.

١٠ تمثال كلاسيكي نصفي يصوِّر أحد رعايا الإمبراطورية الرومانية الذين اعتنقوا البوذية (المتحف القومي الروماني).

obeikandl.com

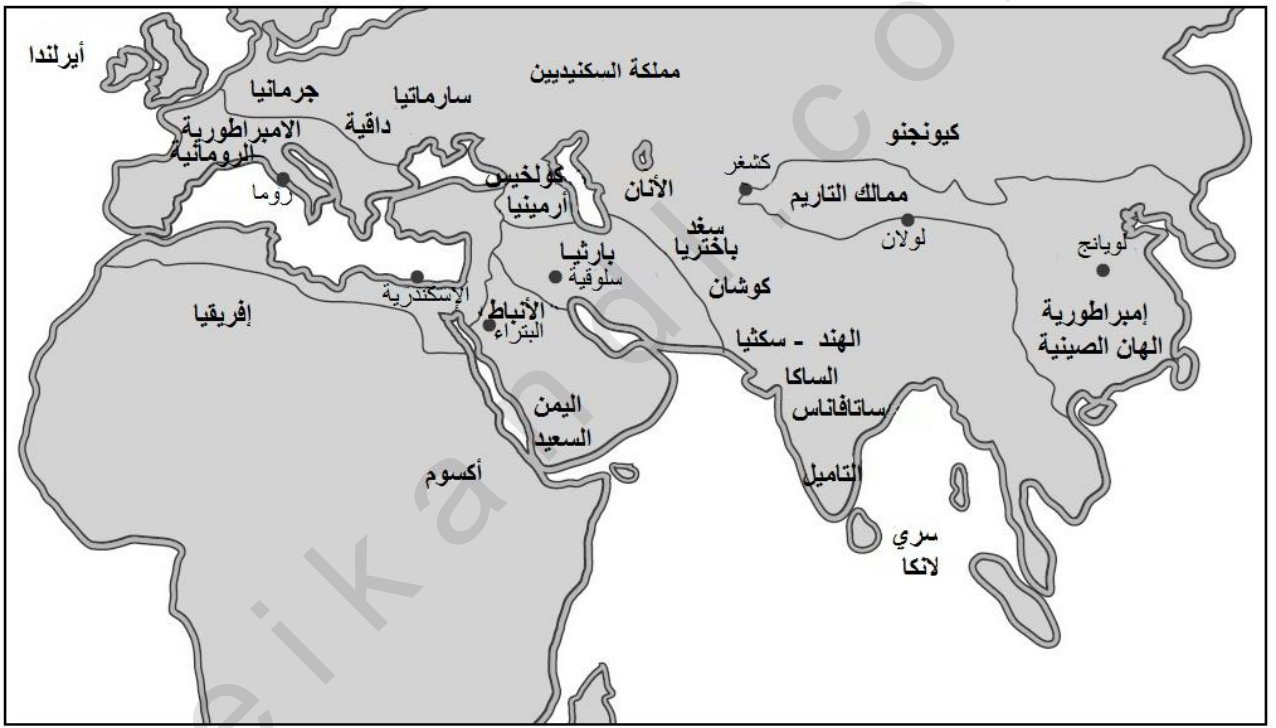

الإمبراطوريات وأقاليم العالم القديم (القرن الأول الميلادي)

obeikandl.com

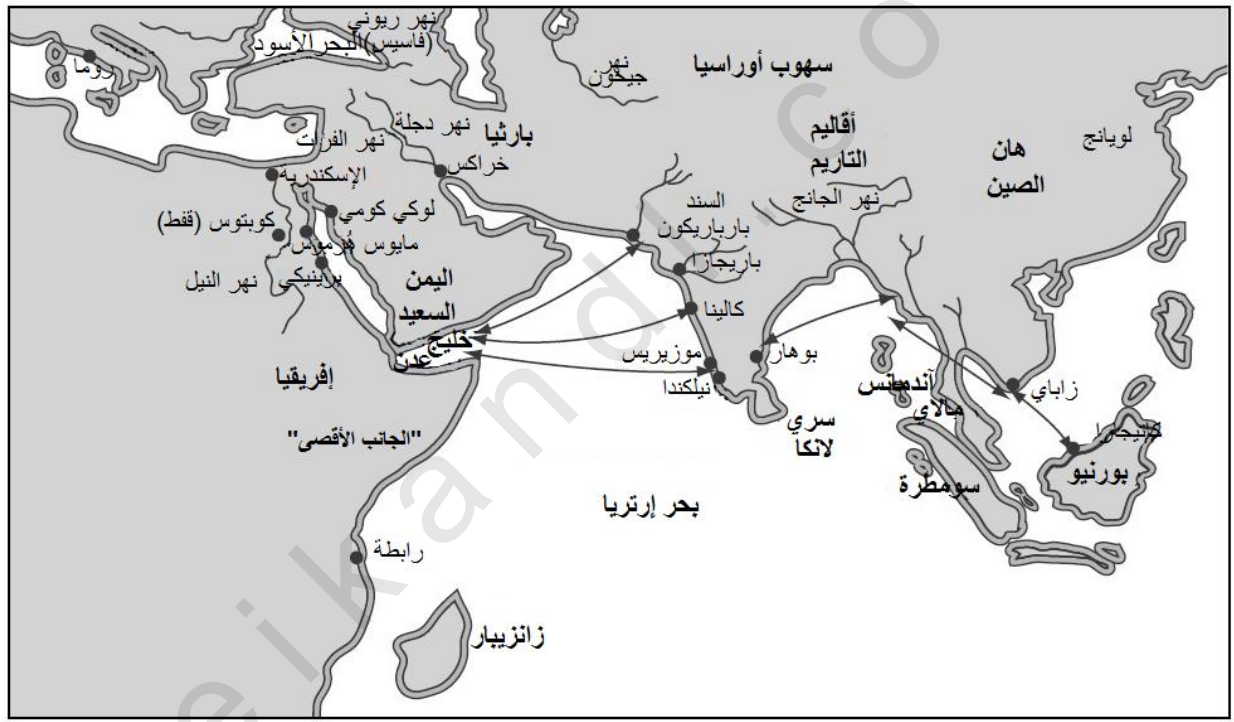

المحيط الهندي (القرن الأول الميلادي)

obeikandl.com

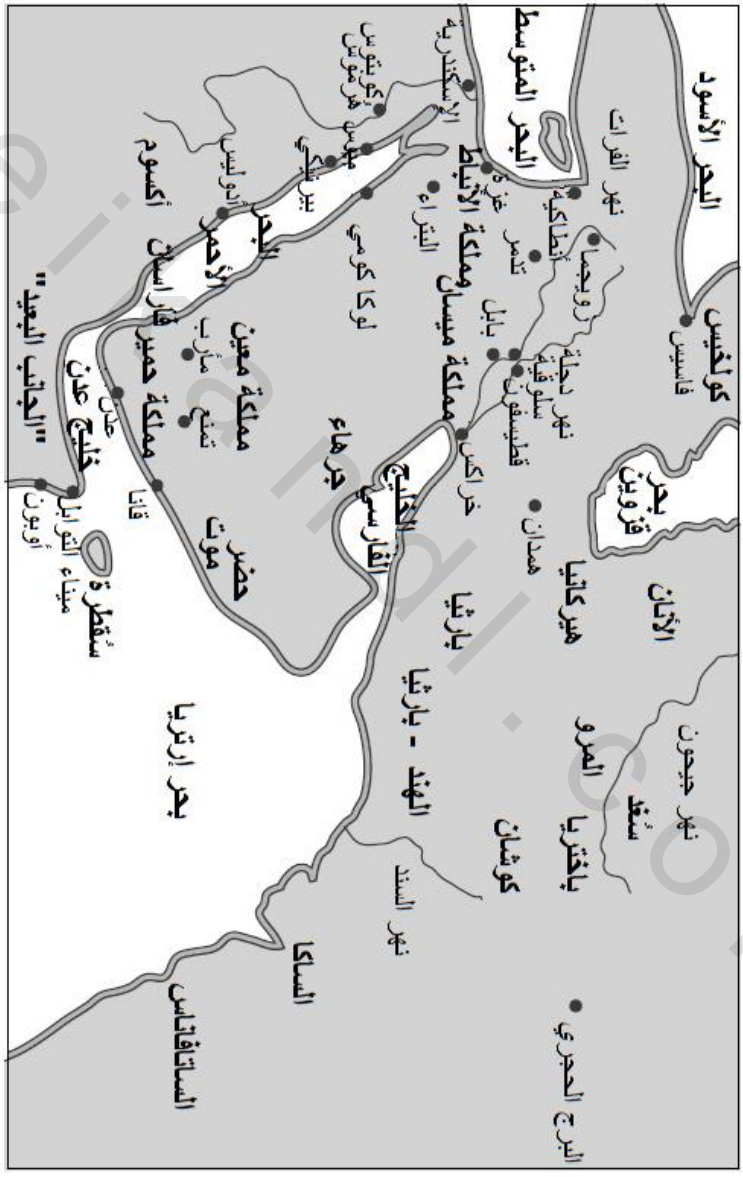

الشرق الأوسط (القرن الأول الميلادي)

العالم من وجهة نظر سترابو (أوائل القرن الأول الميلادي)

obeikandl.com

العالم من وجهة نظر بليني على أساس المعلومات الوارده في كتابه التاريخ الطبيعي (منتصف القرن الأول الميلادي)

obeikandl.com

ض

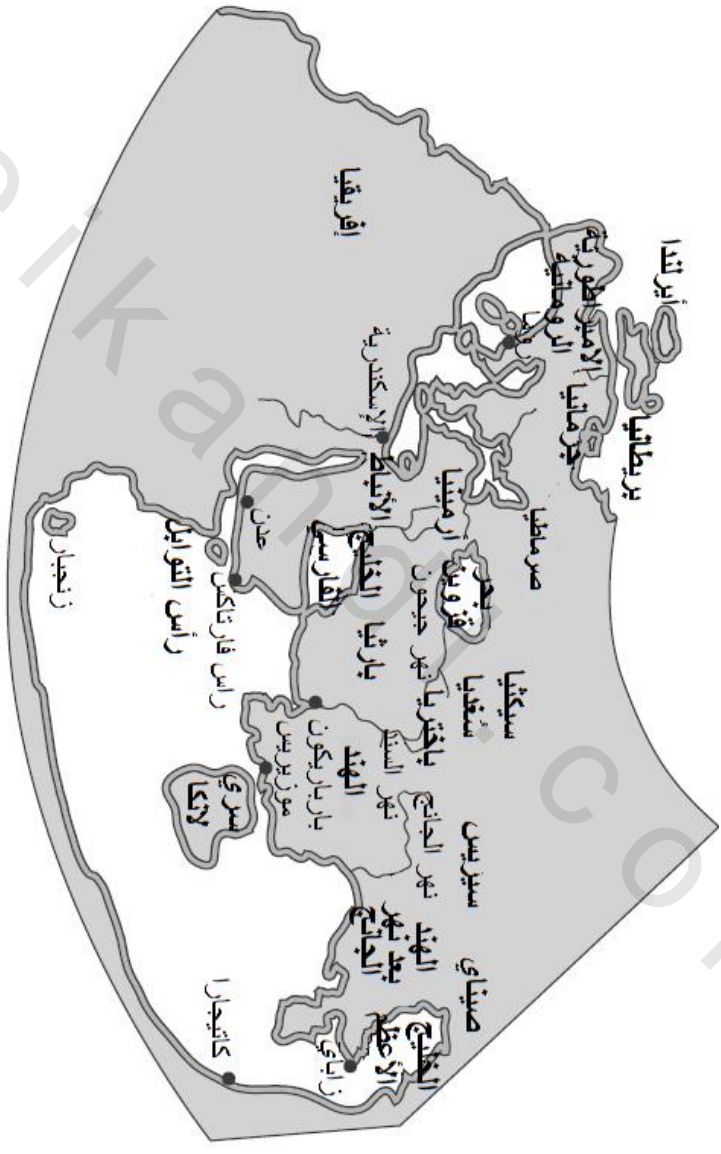

العالم من وجهة نظر كلوديوس بطليموس (منتصف القرن الثاني الميلاد)

obeikandl.com

الاختصارات

AE *حولية النقوش*

BE باجنال وهيلمز وفيرهوجت (٢٠٠٠-)، *وثائق من برنيكي*. بروكسل: مؤسسة رين اليزابيث لعلوم المصريات

CIL *مدونة النقوش اللاتينية*

CIS *مدونة النقوش السامية*

EI *النقوش الهندية* (تنتجه دور نشر متنوعة).

IG *النقوش الإغريقية* (برلين ١٨٧٣-).

IGRR *نقوش يونانية رومانية*

ILS *مختارات من نقوش لاتينية*

Inv. كانتينو وستاركي وجوليكوسكي (١٩٣٠-)، *قائمة نقوش من تدمر*. بيروت، باريس، دمشق.

O. Mich. أستراكا إغريقية في مجموعة جامعة ميشيجان

O. Petr أستراكا بيتري؛ أستراكا من مجموعة الأستاذ الدكتور فلندرز بيتري في جامعة كوليدج بلندن

OGIS ديتنبرجر (١٩٠٣-١٩٠٥)، مختارات من نقوش إغريقية شرقية

P. Lond. كينيون وبيل (١٨٩٣-)، *البرديات اليونانية في المتحف البريطاني*. لندن، المتحف البريطاني قسم المخطوطات.

P. Mich. *البرديات الإغريقية في مجموعة جامعة ميشيجان*.

P. Tebt جرينفيل وهنت (محرران) (١٩٠٢-)، *برديات تيبتونس*. لندن

P. Vindob. برديات فيندوبنسيس، المكتبة الوطنية النمساوية، فيينا.

RES كليرمون جانو (محرران) (١٩٠٠-)، *دليل دراسة النقوش السامية*. باريس، المطبعة الوطنية.

SB الكتاب المجمع ؛ سجل القصاصات والوثائق اليونانية من مصر

SEG ملحق النقوش اليونانية

obeikandl.com

مقدمة: روما والشرق البعيد•

في السنوات الأخيرة من العهد الجمهوري، أكمل الرومان غزوهم لممالك البحر الأبيض المتوسط المتبقية. ومع ذلك فقد قدَّر القليلون في هذه الإمبراطورية نطاق العالم القديم الذي كانوا يسكنون فيه. وبعيداً عن حدودهم الخارجية، وعبر الأراضي الشاسعة غير المضيافة من آسيا الداخلية، تقع الرقعة الشاسعة من الهان الصينية. حكمت الصين، التي لم تكن معروفة سابقاً للرومان لما يقرب من قرنين، شعباً ومساحةً تعادل مساحة روما في أوج قوتها. على الرغم من أن الرومان كانوا على علمٍ قليلٍ بالصين، فقد حافظ الهان على طموحاتهم في الغرب البعيد، ومع تقدم الوقت جلبوا معاً تقارير عن روما، حيث اعتبروا هذا البعد يوازي الإعجاب المتزايد، ومن هنا وضعوا خططاً طموحةً للتواصل.

وتحت وطأة الأنماط التجارية الجديدة، انتقلت السلع التجارية بكميات كبيرة، وعلى نحو متزايد ما بين الصين وروما. ومع ذلك، فإن الممالك المعادية التي كانت تقع بين الإمبراطوريتين الكبيرتين قامت بحماية الأرباح التجارية من هذه الحركات، وسدَّت تقريباً جميع الاتصالات المباشرة بين الحضارتين الرومانية والصينية. وإلى الشرق من الإمبراطورية الرومانية، كانت تقع مملكة الفرثيين، المنافس الكبير لروما التي امتدت عبر بلاد فارس من بلاد ما بين النهرين وإيران إلى حدود الهند. وقد منع وجود البارثيين وصول الرعايا الرومان إلى طرق القوافل البرية الحيوية عبر إيران، التي تؤدي

• يستخدم المؤلف مصطلحين جغرافيين مختلفين. وهما the Distant East(الشرق البعيد) ويقصد به "المناطق الواقعة وراء حدود الأراضي الرومانية. وتشمل: المملكة البارثية، وجنوب شبه الجزيرة العربية، وشرق أفريقيا، والهند، وآسيا الداخلية، والشرق الأقصى، والصين." ومصطلح the Far East (الشرق الأقصى) ويقصد به أراضي الشرق الأقصى المتعارف عليها.(المترجم).

إلى الهند والصين. ومع ذلك، استحوذت الإمبراطورية الرومانية، قرب نهاية الحقبة الجمهورية، على الأراضي المتوسطية المطلة على البحر الأحمر، ومع تحسُّن فرص السوق، بدأ عددٌ أكبر من الرعايا الرومان استخدام هذا المجال؛ للوصول إلى المحيط الهندي، واستكشاف الشرق البعيد.

وتكشف لنا المصادر المتعددة من الكتابات الكلاسيكية، كيف ربطت هذه الطرق التجارية البعيدة الأراضي الشرقية من الإمبراطورية الرومانية بالأراضي البعيدة، مثل: الجزيرة العربية، والهند، والصين. وتشير الأدلة القديمة إلى أنه بعد فتح مصر، أصبحت الكثير من السلع الغريبة الواردة من الشرق البعيد متاحة وبشكل متزايد في المجتمع الروماني. وتصف الشهادات القديمة أيضاً المشاريع التجارية التي كان يقوم بها الرعايا الرومان، الذين سافروا بدافع الأرباح إلى أبعد من الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وواجهوا مخاطر كبيرة؛ للحصول على التوابل القيمة، والحرير والمواد العطرية الثمينة.

كما تكشف لنا المصادر عن كيفية إبحار التجار الرومان من موانئ البحر الأحمر المصرية إلى المعابر المحيطية البعيدة؛ لاستكشاف الفرص التجارية المعروضة في الأراضي البعيدة، التي تُطوِّق المحيط الهندي. وفي أوائل القرن الأول الميلادي، أبحر التجار الرومان بشكل روتيني حتى التاميل الهندية. ومن خلال هذه الاتصالات التجارية تم استيراد مجموعة واسعة من المواد الغريبة، بما في ذلك التوابل، والأقمشة، والأحجار الكريمة إلى الإمبراطورية الرومانية.

وفي هذه الرحلات التجارية البعيدة زارت السفن التجارية الرومانية الأسواق الأفريقية في إثيوبيا، والصومال، للحصول على منتجات محلية قيمة، التي شملت العبيد الغريبين، والعطريات الثمينة. كما قام التجار الرومان أيضاً بزيارات متكررة إلى

البازارات الشرقية في أقاليم جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث يمكنهم الحصول على أشجار البخور، والصمغ الثمينة، التي تحصد في المناطق المحيطة بها. ونتيجة لتطور وازدهار هذا الجانب التجاري، بدأ التجار من الممالك العربية إرسال قوافل كبيرة من الجمال شمالاً عبر صحراء شبه الجزيرة العربية الواسعة؛ للوصول إلى الأسواق المزدهرة في فلسطين، وتزويد المجتمع الروماني بمزيدٍ من أشجار هذا البخور الثمين.

وتقدم لنا الكتابات القديمة أيضاً دليلاً على تشغيل طرق التجارة البرية البعيدة التي امتدت عبر آسيا لتزويد الأسواق الرومانية بمجموعة أخرى من المنتجات الشرقية. وكانت بلاد ما بين النهرين منطقة متنوعة عرقياً، ولم يكن لدى بارثيا السلطة المطلقة على مجتمعاتها وممالكها الصغيرة. وتمكَّن تجار الإمبراطورية الرومانية من العبور بحريةٍ من سوريا إلى بلاد ما بين النهرين لزيارة المدن اليونانية والفارسية الكبرى، التي كانت موجودة في الأراضي الخصبة بالقرب من نهري دجلة والفرات. وهناك وجدوا السلع الشرقية التي وصلت إلى بلاد ما بين النهرين من خلال طرق التجارة البحرية التي تمتد عبر الخليج العربي إلى شمال غرب الهند. كما قدمت بلاد ما بين النهرين المزيد من الإمكانات التجارية للتجار الرومان. وكان ذلك على حدود طرق القوافل الكبرى التي كانت تمتد عبر الأراضي الإيرانية لمملكة بارثيا للوصول إلى المواقع البعيدة في داخل آسيا حتى الصين.

على الرغم من أن الصين ظلت بعيدةً، أعربت الكتابات الكلاسيكية، منذ وقتٍ مبكرٍ من تاريخها، عن تقديرها لحجم الصين القديمة وأهميتها. ويميل الاهتمام الأكاديمي الحديث بروما إلى التأكيد على أهمية أوروبا الغربية، ولكن الهند كانت دائماً ذات أهمية كبرى في المعرفة التقليدية في العالم القديم، ففي القرن الخامس قبل الميلاد، سجَّل المؤرخ اليوناني هيرودوت قوائم الجزية من الإمبراطورية الفارسية، التي امتدت

من مصر وآسيا الصغرى عبر إيران إلى الحدود الخارجية للهند. على الرغم من أن الفرس كانوا يسيطرون فقط على منطقة نهر السند، كانت تقدِّم هذه الحدود الطرفية الشرقية من مملكتهم لملكهم داريوس تقريباً ثلث عائدات مجموع الجزية.[١]

وبحلول العصر الروماني، سمح نمو التجارة الدولية بقدرٍ أكبر من الاتصالات بين هذه الحضارات البعيدة والهند. ويمكننا القول إنها كانت أكثر مناطق العالم القديم أهمية. "يقولون إن الهند تُشكِّل ثلث الأرض كلها، وإنَّ عددَ سكانِها لا يُعَدُّ ولا يُحصَى- وهذا بالتأكيد ممكن."[٢] هذه الكلمات هي للكاتب والقائد الروماني جايوس بلينيوس سيكوندوس، والمعروف باسم بلني الأكبر. عَمِلَ بلني مستشاراً للإمبراطور فاسباسيانوس، وَأَلَّفَ في القرن الأول الميلادي واحدةً من أكثر الدراسات التي وصلت إلينا تفصيلاً عن العالم القديم. ويقدر بلني في مكان آخر في عمله الموسوعي ازدهار رحلات التجارة الرومانية عبر المحيط الهندي، ويبرر إدراجه هذه المادة الجديدة بقوله: "هذا أمر مهم حيث إن الهند تستنزف أكثر من خمسين مليون سستريس سنوياً من إمبراطوريتنا".[٣] لوضع هذا الرقم في سياق التصدير، كان مبلغ ٥٠ مليون سستريس أكبر من الجزية السنوية التي فرضها القيصر على بلاد الغال بعد غزوه هذه الأراضي المنتجة.[٤]

لقد أصبحت هذه العبارات القديمة بشأن الشرق البعيد مهمة جداً عندما نشر العلماء المحدثون الادعاءات الرومانية المبالغ فيها من أن الإمبراطورية الرومانية كانت تحكم العالم. إن العالم القديم الحقيقي كان أكبر بكثيرٍ من أيِّ منطقةٍ مِنْ مناطق الرومان المتوسطية، أو الأراضي الواقعة على أطراف شمال غرب أوروبا. ومن هنا فإنَّ أيَّ روماني مطلعٍ كان يدرك أنَّ روما كانت لا تحكم سوى جزءٍ صغيرٍ من الأرض، وأنَّ هناك فيما وراء الحدود الشرقية، يوجد ممالك متطورة يمكن أن تنافس إمبراطوريته.

وكان الدليل على وجود هذه القوى البعيدة ما كان يُعرض للزبائن الرومان في الأسواق الشعبية الموجودة في مراكز المدن من منتجات آتيةٍ من الجزيرة العربية، وبلاد فارس، والهند، والشرق الأقصى. وكثيراً ما كانت تُرْسِلُ هذه الممالكُ الشرقيةُ، التي كان يرى حكامها أنفسهم متساوين مع نظرائهم الرومان، ممثلينَ إلى الإمبراطور الروماني.

وربما شعر الرومان بعدمِ الارتياح إزاء ما يكمن وراء حدودهم الشرقية، حيث اعتمدت روما على مصر لإطعام شعبها الغفير، ولكن مصر كانت أيضاً البوابة لمنطقة المحيط الهندي، والحدود الخارجية لرقعتها الهائلة التي لا تزال غير مستكشفة. وأطلق أوغسطس، دون أي عمل استفزازي تقريباً، أسطولاً من ١٣٠ سفينةً حربيةً في البحر الأحمر ضد الجزيرة العربية للاستيلاء على ثرواتها.[٥] ونهبوا مدينة عدن خلال هذه الاعتداءات على الرغم من فشل الغزو، وهو ما يعدُّ سابقة.

ونتيجةً لاستكشاف التجار مزيداً من مناطق الشرق البعيد، أدركت السلطات الرومانية أن العالم القديم لم يكن ينتهِ عند حدود الهند كما اعتقد أسلافهم الإغريق وتصور أيضاً أسلافهم الجمهوريون. وبحلول القرن الأول الميلادي توسعت الاتصالات التجارية لتصل إلى شبه جزيرة الملايو، وبدأ وصول تقارير من أراضٍ أبعد منها. وبناءً على ذلك، لم يكن لدى السلطات الرومانية سببٌ وجيهٌ للشعور بالرعب من حجم العالم المأهول بالسكان آنذاك. ومع ذلك فقد قدر الرومان أيضاً كيف مكَّنت هذه العلاقات الجديدة من حدوث اتصالات لم يسبق لها مثيل بين أبعد المناطق التي عرفها الرومان. كما لاحظت سينيكا (Seneca): "ما المساحة التي تقع بين أبعد شواطئ إسبانيا والهند؟ أيام قليلة فقط من السفر بالسفينة إذا كانت الرياح مواتية".[٦]

ومن خلال اتصالاتهم البحرية الأكثر بُعداً مع الهند، بدأ الرومان ولأول مرة يحصلون على معلومات متضاربة عن قوة أخرى كبيرة في الشرق الأقصى. وكانت هذه

القوة هي الصين، المصدر الحقيقي للأقمشة الحريرية التي أصبحت بالفعل أزياء معروفة بين المستهلكين الرومان الأثرياء. ونتيجة لتوسُّع التجارة الرومانية وبشكل مطَّرد مع الشرق البعيد، أصبحت الاتصالات المباشرة بين هاتين الحضارتين العظيمتين أمراً لا مفر منه.

كان الفيلسوف ورجل الدولة الروماني سينيكا معلماً للإمبراطور الروماني نيرون، وكان مهتماً بما فيه الكفاية بالشرق البعيد، حيث ألَّف كتاباً بشأن الهند.[٧] ولم يبقَ هذا العمل حتى العصور الحديثة، ولكنَّ هناك جُملاً وفيرةً في دراساته تبدو منذرةً بسوء، وخصوصاً فيما يتعلق بالشائعات حول الصين التي وصلت إلى روما خلال فترة حياة سينيكا. وانتقاداً للقدرة البشرية وما قد تسببه من أضرارٍ لدولٍ أجنبية، حذَّر سينيكا من أن روما قد تجد نفسها ضحيةً ولو ليومٍ واحدٍ؛ لقوةٍ إمبراطوريةٍ بعيدةٍ وغير معروفةٍ حتى الآن. يقول سينيكا متأملاً: "ماذا لو أراد أحدُ حكامِ أيِّ أمةٍ عظيمةٍ أخرى، غير معروفةٍ لنا في الوقت الحالي، توسيعَ حدودِ مملكتِه، أو ربما يكون في هذه اللحظة يُجَهِّزُ أسطولاً لإرساله ضدنا؟".[٨]

في العالم القديم، لم يكن الصراع من أجل التفوق مرهوناً دائماً بالغزو والحروب، ففي الأراضي البعيدة من روما، كان عملاء الإمبريالية يقومون باستخدام إستراتيجيات اقتصادية لجعل الشعوب الأجنبية في مواقف الخنوع. وفي الشرق الأقصى، قدَّم الهان مشروعات بارعة طويلة الأجل لتقويض أعدائهم الأجانب، وتدمير أي قدرة تحاول مقاومة الصين أو شن حرب عليها. وشجع الهان عملَ سوقٍ للمواد الغذائية الصينية والملابس بين الشعوب الأجنبية بما في ذلك جحافل كيونغنو من السهول المنغولية. وكان الهدف النهائي يتمثل في جعل هؤلاء السكان يعتمدون على الأطعمة الصينية، والسلع المصنعة في الصين، بحيث يمكن حجب هذه السلع، أو

تقليص الكميات المعروضة منها، لإنزال خسائر اقتصادية بهذه الجاليات الأجنبية. وحدَّد مسؤولٌ من الهان، الكيفيةَ التي ينبغي بها تنفيذ هذه الإستراتيجية، قائلاً: "إن أي سوق كبير يتم إنشاؤه لا بد من تجهيزه بالمحلات التجارية. ويجب أن تكون جميع المحلات التجارية كبيرة لخدمة ما بين مائة ومائتي فرد.. وسوف تقوم كيونغنو بإذكاء الولع بمنتجاتنا، وسوف يكون في ذلك ضعف مميت لهم".[٩] وقد خُدعت كيونغنو من خلال الآلاف من المبادلات التجارية التي استنزفت بشكل جماعي مواردها، وأضعفت استقلالها الاقتصادي. كما أفاد مسؤول آخر من الهان بقوله: "يمكن أن يتم تبادل قطعة عادية من الحرير الصيني مع بدو كيونغنو مقابل سلعة تبلغ قيمتها عدة قطع من الذهب. وبهذه الطريقة يمكن تقليل حجم موارد عدونا".[١٠] وهكذا وببصيرة الهان المحسوبة ببطء ولكن بثبات، أحكموا الخناق الاقتصادي على أخطر خصومهم.

في الإمبراطورية الرومانية تسبب الطلب المتزايد على الأزياء والأقمشة الجديدة والمكلفة من الحرير قلقاً متزايداً، ففي خطاب للإمبراطور تيبريوس أمام مجلس الشيوخ عام ٢٢م، لفت الانتباه إلى تأثير هذه النزعة الاستهلاكية دون رادع على الاقتصاد الروماني، قائلاً: "يتم نقل ثروتنا لبلدان غريبةٍ ومعاديةٍ بسبب الثياب غير اللائقة التي يرتديها الرجال والنساء – وخاصة النساء".[١١] ولكن – وعلى الرغم من ذلك – لم يتم اتخاذ أي تدابير فعَّالة للحد من تجارة الملبوسات في العقود التالية، فتصاعد الطلب عليها، مما أدى إلى تصدير كمياتٍ كبيرةٍ وغير مسبوقةٍ من الثروة الرومانية إلى الشرق البعيد. أزعجت هذه القضايا المعنية سينيكا، الذي كان على علمٍ بأن ثروة الإمبراطورية جارٍ نقلها إلى أُناسٍ في أماكن بعيدةٍ لم يتم اكتشافها من قبل التجار الرومان حتى الآن، ولم يعلنوا عن ذلك للحكومة في روما. ويخلص سينيكا محذِّرا إلى أنه "يتم استيراد هذه الأقمشة الحريرية بتكاليف باهظة من دول غير معروفة لنا حتى من

خلال التجارة".[١٢] وعرف بلني أيضاً "ناس الحرير" باعتبارهم أحد المشاركين الرئيسيين في استنزاف الشرق الذهب الروماني ويتهمهم أيضاً بإدارة تجارة كبيرة تستفيد منها الشعوب الشرقية "بأخذ ١٠٠ مليون سستريس من إمبراطوريتنا كل عام — كم تكلفنا الكماليات والنساء".[١٣] وهذا الرقم قد يعادل ثمن إجمالي نفقات الميزانية الرومانية. وبحلول هذا العصر كان الوقت فعلاً قد فات لتقييد التجارة، حيث أصبحت الإمبراطورية الرومانية تعتمد وبشكل متزايدٍ على ضرائب الواردات الجمركية التي فرضتها على البضائع الشرقية.

كان لدى الرومان سبب وجيه لتلقي الشائعات عن الصين بتوجس. كان سينيكا عضواً في البلاط الإمبراطوري في عهد كلوديوس عندما أرسل ملك سريلانكا فريقاً من السفراء لإقامة أول اتصالات دبلوماسية بين المملكة السنهالية والدولة الرومانية. وكان بلني ضابطاً عسكرياً شاباً يعمل في ألمانيا في ذلك الوقت، ولكنه كتب في وقتٍ لاحقٍ عن هذا الحدث، مما يشير إلى خوف النخبة الرومانية من هذا اللقاء غير المتوقع، حيث كانت السلطات القديمة السابقة لا تعرف سوى القليل جداً عن المملكة السنهالية قبل هذا الانفتاح الدبلوماسي الدرامي. وكانت هناك تكهنات شعبية بأن سريلانكا ربما كانت جزءاً من قارةٍ واسعةٍ لم تُكتشف بعد، وتساوي حجم الكتلة القارية الأوراسية.[١٤]

إن التقدير بأنَّ روما لم تكن سوى جزء صغير من العالم القديم أمرٌ له ارتباط بالأيديولوجية الرومانية، وخاصة ذلك التأكيد الذي ما فتئت النخبة الإمبريالية الرومانية تكرره بأن لإمبراطوريتهم سلطة على الأرض كلها. في الواقع، قد لا تكون هذه السلطة عسكرية. ويشير سينيكا إلى أن الادعاء الروماني بالاعتراف بالعالم تم تحقيقه من خلال التعامل السلمي للتجار، وليس من خلال القوة العسكرية. ويحتج

قائلاً: "أتيحت لنا الرياح حتى أصبحت الثروة متاحة في كل منطقة، وليس لحمل الفيالق وسلاح الفرسان، أو جلب الضرر للشعوب الأخرى".[١٥]

يقدم هذا الكلام الأخير لسينيكا تقييماً أكثر دقة وربما أكثر صحةً لما حققه الرومان قديماً، ففي ذروة القوة الرومانية، كان رعايا الإمبراطورية يتجهون إلى أقصى الغرب حتى هيبرنيا لزيارة المراكز التجارية، في حين أن أساطيل تجارية كبيرة في الشرق البعيد كانت تبحر بصورة روتينية من الموانئ الرومانية في مصر إلى الأسواق الساحلية في الهند وخارجها.[١٦] ولم يحقق الرومان أي فتح عالمي على الإطلاق، ولكن الحُكم الروماني كان قادراً على تعزيز التجارة التي كان لها تأثير كبير جداً في العالم القديم وموارده، أكبر مما يمكن أن تحصل عليه الجيوش الإمبريالية بالقوة القسرية. وربما يمكن تقييم ما حققته روما للعالم على نحو أفضل من خلال إنجازات التجار وقياسه بنطاق وحجم أنشطتهم.

من خلال دراسة التدخل الروماني في تجارة الشرق، يتناول هذا الكتاب الإمبراطورية الرومانية، ويضعها بدقةٍ أكثر ضمن سياقها القديم الحقيقي، حيث ينتقد هذا الكتاب الصورة التقليدية التي قدَّم بها الباحثون الغربيون روما وإنجازاتها. وتجدر الإشارة إلى أنه لا تزال هناك العديد من المسلَّمات في الأوساط الأكاديمية تتعلق بتقييم الإمبراطورية الرومانية إلى حدٍّ كبيرٍ، على أساس نفوذها السياسي والعسكري، مما يحصر مثل هذه الدراسات ضمن حدود أكاديمية ضيِّقة. إنَّ هذه المسلَّمات بحاجةٍ إلى التصدي والنقد، ويمكن تحقيق ذلك من خلال دراسة الأدلة القديمة المتعلقة بكيفية قيام التجارة بربط وتمويل العالم القديم. وأخيراً، أعتقد أن التجارة الدولية في العالم القديم هي المفتاح لتفسير النجاح الاقتصادي الملحوظ للنظام الإمبراطوري الذي ساعد على بروز الإمبراطورية الرومانية في عصرها المبكر وحافظ عليها.

خطة الكتاب

إن الدراسة التي يقدمها هذا الكتاب هي تحقيقٌ متواضعٌ في عملية التجارة الشرقية لروما. ويستند هذا الكتاب إلى بحوثي للحصول على الدكتوراه، التي تمت في عام ٢٠٠٦م بعنوان "التجارة الرومانية مع الهند والشرق البعيد". وأعتقد أن أحد القضايا الرئيسية التي تحد من دراسة التجارة الشرقية هو عدم توافر الكثير من الكتب حول هذا الموضوع.

يعتبر هذا الكتاب الأول من نوعه، الذي ينظر بشمولٍ إلى تجارة روما الشرقية، ولكن دراسة بهذا الحجم لا يمكن أن تتعامل على نحو كافٍ مع مجموعة الأدلة الموجودة حول هذا الموضوع. بالتالي لقد ركزت دراستي على تطور الاتصالات الشرقية حتى أهم فتراتها. وتم أخذ المعلومات المستخدمة من النصوص القديمة التي يصعب على غير المتخصصين الحصول عليها، وقد قدمتُ لها ترجمةً كلما أمكن ذلك. وقد وجهتُ مناقشتي أيضاً نحو الأدلة التي يمكن استخدامها لتصحيح وجهات النظر الحالية والسائدة حول الاقتصاد الروماني والمواقف التقليدية تجاه العالم القديم.

يقدم **الفصل الأول** الدليل الرئيسي للتدخل الروماني في التجارة الشرقية. ويتضمن هذا استعراضاً للنصوص الكلاسيكية الرئيسية، ومقدمة للأدلة الأثرية، ومناقشة المصادر القديمة من الحضارات الهندية والصينية، التي سلمت من الضياع والتلف. ويبحث **الفصل الثاني** في طرق التجارة البحرية من مصر الرومانية عبر المحيطات الشرقية إلى الهند والشرق البعيد. ويدرس **الفصل الثالث** طرق التجارة ومسارات القوافل عبر الخليج والصحراء لجلب البخور من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى الأراضي الرومانية شمالاً. ويتناول **الفصل الرابع** الدليل على طرق التجارة البرية التي عبرت بلاد فارس لربطها بما يسمى طرق الحرير في آسيا الداخلية.

obeikandl.com

وينظر الفصلان الأخيران من هذه الدراسة في السياق السياسي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية، حيث يتناول **الفصل الخامس** الدليل على الاتصالات الدبلوماسية بين الحكومة الرومانية والقوى البعيدة التي حكمت الهند والصين. ويتناول **الفصل الأخير** أهمية التجارة الشرقية للاقتصاد الروماني. ويبحث الجزء الأول من هذا الفصل استهلاك الأزياء من البضائع الشرقية في المجتمع الروماني، والطريقة التي موِّلت بها الرحلات التجارية نحو الشرق البعيد. أما الجزء الأخير فيتناول الإيرادات التي تلقتها روما من التجارة الشرقية، ويبحث في كيفية تمويل هذه الإيرادات للإمبراطورية الرومانية. وتقدم هذه المناقشة نموذجاً بديلاً للاقتصاد الروماني، وكيف عملت الإمبراطورية في أعظم فترات ازدهارها.

في هذا الكتاب، فإنَّ مصطلح "روماني" يصف أراضي سوريا، وفلسطين، ومصر، والجزيرة العربية، التي كانت تقع ضمن الإمبراطورية الرومانية، أو تقع في ظل حكم ممالك عميلة. كما أن مصطلح "الشرق البعيد"، يشير هنا إلى ما وراء حدود الأراضي الرومانية. ويشمل هذا بالطبع المملكة البارثية، وجنوب شبه الجزيرة العربية، وشرق أفريقيا، والهند، وآسيا الداخلية، والشرق الأقصى، والصين.

وبالرجوع إلى المصادر القديمة فقد حرصتُ على استخدام العنوان، الذي ربما يكون معروفاً حتى لغير المتخصصين. وفي الحواشي، أدرجت النصوص القديمة بالترتيب حتى يمكن قراءتها لفهم هذا الموضوع. وفي معظم الحالات، قصرت المراجع على أحدث الآراء حول هذا الموضوع، وذكرت الأعمال، التي يمكن الاطلاع عليها للحصول على تفاصيل علمية أخرى. وأخيراً، فإنني أعتقدُ أن التجارة الشرقية هي موضوع جديرٌ بالبحث التاريخي في المستقبل. على الرغم من أنني شخصياً لم يكن لديَّ

الفرصة لمواصلة هذا البحث، إلا أنني تمكنت من إيجاد سياقٍ يمكن أن يستخدمه العلماء في المستقبل لاستكشاف المزيد عن هذا الموضوع الرائع.

obeikandl.com